الفصل الثالث

الإنسان بين وظيفة المرآة العاكسة والفاعلية الحضارية

- مدرسة قرآنية تواجه الغرب المادية
- المستقبل للإسلام وحضارته الإيمانية
- الأسباب ودورها في الحركة التاريخية

الإنسان بين وظيفة المرآة العاكسة والفاعلية الحضارية

لم يقدم لنا بديع الزمان سعيد النُّوْرْسي -في كلام مباشر- نظرية فلسفية يفسر من خلالها حركة التاريخ.

إنه -أصلاً- لم يحاول أن ينطلق من قواعد الانطلاق الفلسفية؛ لأن قاعدة انطلاقه كانت قرآنية خالصة، وكان يحافظ عليها من عوامل التأثير -أو التشويه الفلسفية- لا لأن قواعد الانطلاق القرآنية كافية فحسب، بل لأن إقحام فكر فلسفي مكون من أخلاط مشوبة بالتأثيرات المادية أو السوفسطائية من شأنه إفساد الرؤية أو قاعدة الانطلاق القرآنية!!

ومع ذلك فعندما أمعنتُ النظر في الرؤية "النُّوْرْسية" التي لا شك في أنها جديدة ورائعة حول كليات أسماء الله الحسنى، وانعكاساتها في الإنسان؛ الذي جعله الله "مرآة" تنعكس عليها أسماؤه الحسنى، فتظهر قدرة الله المطلقة من خلال قدرة الإنسان النسبية، ويظهر علم الله المطلق في مرآة علم الإنسان النسبي...

وهكذا تظهر آثار سمع الله "السميع" وبصر الله "البصير" وحكمة الله "الحكيم"...

أقول: عندما أمعنت النظر في هذه الرؤية التي يكاد "النُّوْرْسي" ينفرد بها على هذا النحو التفصيلي والتطبيقي والتمثيلي الرائع، أيقنت أن النُّوْرْسي كان يقدم رؤيته لأسماء الله الحسنى رؤية تركيبية ذات إطار معرفي قرآني يفسر به حركة الإنسان... الإنسان كفرد... الإنسان كمجموع (تاريخ وحضارة)... الإنسان وحركة وكون... وأما الآثار أو ما يسميه المنظرون لفلسفة التاريخ بالعامل الاقتصادي أو العامل الاجتماعي، أو الروحي أو النفسي... أو الفردي

(الصفوة- النخبة) أو (الجماعي- الاشتراكي)... أما كل هذه العوامل فليست إلا بعض مظاهر لفاعلية الأسماء الحسنى في حركة الإنسان والكون، فاعلية رحمة من "الرحيم الرحمن" فتنتهي إلى سعادة وصعود.. أو فاعلية نقمةٍ من "المنتقم الجبار" فتنتهي إلى شقاء وسقوط!!

إن الله هو الفاعل في التاريخ، وإليه يجب أن تعزى حركة الإنسان والحضارة والكون.. و"الإنسان" هو المرآة العاكسة لتجليات الأسماء الحسنى... وهو بالتالي- المأمور بنقل صورة هذه الأسماء إلى الحياة، إبداعا وإرادة وقوة وعدلاً وقدرة ورحمة... إنه المستخلف، وليست حقيقته الكبرى الأنانية (أنا) إلا في القيام بوظيفة نقل أسماء الله الحسنى إلى عالم الأرض والكون... لأنه الوحيد من بين كل الكائنات -حتى الملائكة- الذي يملك الإرادة والحرية وعصيان الله وأيضاً -طاعة الله- بطريقة اختيارية!!

إن "أنا" مفتاح، يفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، كما يفتح مغاليق الكون. فهو في حد ذاته طلسم عجيب، ومُعَمَّى غريب، ولكن بمعرفة ماهيةِ "أنا" يُحَل ذلك الطلسم العجيب ويُكشف ذلك المعمى الغريب "أنا" ويُفتح بدوره لغز الكون، وكنوز عالم الموجود.

ويقول: "اعلم أن مفتاح العلم بيد الإنسان وفي نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب ظاهراً إلا أنها منغلقة حقيقة؛ فالحق ﷻ أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحاً يفتح كل أبواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلافة الكون. والمفتاحُ هو ما فيك من "أنا"، إلا أن "أنا" أيضاً مُعَمَّى ومغلق، وطلسم منغلق؛ فإذا فتحتَ أنا بمعرفة ماهيته الموهومة وسر خلقته انفتح لك طلسم الكائنات كالآتي:

إن الله ﷻ وضع بيد الإنسان أمانة هي: "أنا" الذي ينطوي على إشارات ونماذج يستدل بها على حقائقِ أوصافِ ربوبيته الجلية وشؤونها المقدسة، أي يكون "أنا" وحدة قياسية تعرف بها أوصاف الربوبية وشؤون الألوهية.[1]

(١) المصدر السابق ص٦٣٥، ٦٣٦.

ويقدم لنا النُّوْرْسي -من خلال الكلمة العاشرة في مبحث الحشر- بعض الحقائق التي تومئ إلى تجليات الأسماء الحسنى في التاريخ والكون.

الحقيقة الأولى: باب الربوبية والسلطنة، وهو تجلي اسم "الربّ".[١]

الحقيقة الثانية: باب الكرم والرحمة، وهو تجلي اسم "الكريم الرحيم".[٢]

الحقيقة الثالثة: باب الحكمة والعدالة، وهو تجلي اسم "الحكيم والعادل".[٣]

الحقيقة الرابعة: باب الجود والجمال، وهو تجلي اسم "الجواد والجميل".[٤]

الحقيقة الخامسة: باب الشفقة وعبودية محمد ﷺ، وهو تجلي اسم "المجيب والرحيم".[٥]

الحقيقة السادسة: باب العظمة والسرمدية وهو تجلي اسم "الجليل الباقي".[٦]

الحقيقة السابعة: باب الحفظ والحفيظية، وهو تَجَلّي اسم "الحفيظ والرقيب".[٧]

الحقيقة الثامنة: باب الوعد والوعيد، وهو تجلي اسم "الجميل والجليل".[٨]

الحقيقة التاسعة: باب الإحياء والإماتة، وهو تجلي اسم "الحي القيوم والمحيي والمميت".[٩]

الحقيقة العاشرة: باب الحكمة والعناية والرحمة والعدالة، وهو تجلي اسم "الحكيم والكريم والعادل والرحيم".[١٠]

الحقيقة الحادية عشرة: باب الإنسانية، وهو تجلي اسم "الحق".[١١]

---

(١) المصدر السابق ص٦٥.

(٢) المصدر السابق ص٦٥.

(٣) المصدر السابق ص٦٨.

(٤) المصدر السابق ص٧٠.

(٥) المصدر السابق ص٧٢.

(٦) المصدر السابق ص٧٦.

(٧) المصدر السابق ص٨١.

(٨) المصدر السابق ص٨٤.

(٩) المصدر السابق ص٨٥.

(١٠) المصدر السابق ص٨٨

(١١) المصدر السابق ص٩٤.

الحقيقة الثانية عشرة: باب الرسالة والتنزيل، وهو تجلي "بسم الله الرحمن الرحيم".[1]

فنحن بإزاء فاعلية وظيفية محددة تتجلى فيها الأسماء الحسنى فترعى حركة الإنسان والحياة والكون، بحكمة وقدرة وعلم وعدل. وفي الوقت نفسه قد تكون الرحمة أو الرأفة -مع الحكمة والعلم والقدرة والعدل- متألقة في صورة من الصور، وقد تكون الجبارية أو الانتقامية متألقة في صورة أخرى تستوجب حالتها العقوبة والتأديب.

إن المساحة الفسيحة للكون والحياة وتقلبات الأمور عبر هذه المساحة بين انسجام وصدام، وعدل وظلم، ورعاية الله العليم الخبير لهذه المساحة كلها من خلال "مفاتيح الغيب" التي لا يعلمها إلا هو... هذه الرعاية تشرق عبر مساحة الحياة والكون بتجليات إلهية تناسب كل حالة على حدة، وتحقق عدل الله ورحمته.

ولا يمكن القول بأن "الأسباب" الإنسانية أو الكونية الظاهرة أو غير الظاهرة، أو العوامل التي يبصرها الناس ويسمونها العوامل المادية أو الاقتصادية أو النفسية المحركة للتاريخ هي "الفاعلة" فليست إلا الشكلَ الذي يستطيع الناس أن يفهموه أو يبصروه أو يتعاملوا معه.. أما الفعل الحقيقي فليس هو الظل الذي انعكس في المرآة وإنما هو الأصل أو هو الحقيقة المؤثرة نفسها، والتي قد يبصر الإنسانُ انعكاساتِها في مرآة نفسه وقد لا يبصرها...

إنني أعتقد أن النورسي من خلال معالجته الرائدة لأسماء الله الحسنى، قد اقترب بنا على نحو غير مسبوق من محورين خطيرين:

أو لهما: لقد أصبح بإمكاننا إلى حدٍ ما أن نفهم بعض ملامح تدبير الله للكون. لقد تطور فقهنا العبادي أو الدُّعاوى السكوني بأسماء الله الحسنى... إننا نكاد نستشعر بقوةٍ معنى كلمات الله التي لا تنتهي، وهي تقود حركة التاريخ والكون؛ انطلاقاً من الأضواء التي ألقاها النورسي على تجليات أسماء الله الحسنى. ولعل

(١) المصدر السابق ص٩٦.

هذه الأضواء النورسية تعيننا على فهم أعمقَ لقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾(الكهف:١٠٩).

يقول النورسي: "إن القرآن الكريم يمنح تلاميذه سماء سامياً للروح، وانبساطاً واسعاً لها؛ إذ يُسَلِّم إلى أيديهم بدلاً من تسع وتسعين حبة من حبات المِسْبَحة، سلسلةً مركبة من ذراتٍ تسع وتسعين عالَماً من عوالم الكون التي يتجلي فيها تسع وتسعون اسماً من الأسماء الحسنى، ويخاطبهم: هاؤم اقرؤوا أورادكم بهذه السلسة، وهم بدورهم يقرؤون أورادهم بتلك المِسبحة العجيبة، ويذكرون ربهم الكريم بأعدادها غير المحددة".[١]

وفي خطابه للإنسان ليَعرف حقيقة دوره (المرآة) يقول النورسى أيضاً:

"أيها الإنسان إن ما تملكه من نفس ومال ليس ملكا لك، بل هو أمانة لديك، فمالِكُ تلك الأمانة قدير على كل شيء، عليم بكل شيء، رحيم كريم، يشتري منك ملكه الذي عندك ليحفظه لك لئلا يضيع في يدك، وسيكافئك به ثمنا عظيما، فأنت لست إلا جندياً مكلفاً بوظيفة؛ فاعمل لأجله وَاسْعَ باسمه، فهو الذي يرسل إليك رزقك الذي تحتاجه ويحفظك مما لا تقدر عليه.

إن غاية حياتك هذه ونتيجتها هي أن تكون مَظهراً لتجليات أسماء ذلك المالك، ومَعكِساً لشؤونه الحكيمة.[٢]

إن اسم الله "القدوس" تتألق تجلياتُه في حملات تطهير الكون الصباحية بالندى الذي يغمر الكون، وتصل قطراته إلى البراعم والثمار، فتزيدها خصوبة وروعة، وتهيّؤُها لمواجهة يوم جديد لا يخلو من أتربة أو شمس حارة.

وأما أثر رحمته فتكاد تلمسها في كل فصل من فصول السنة.. إنها عملية بعث داخلية وخارجية عامة تتجدد بها الحياة كلها: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(١) اللمعات، بديع الزمان النورسي ص١٨٢.

(٢) المصدر السابق ص١٨٣.

قَدِيرٌ﴾(الروم:٥٠). إنها أثواب تلبسها الطبيعة في فصل من كل فصول السنة؛ بحيث تتكيف مع طبيعة كل فصل!!

وهكذا -وعلى هذا النحو- تتجلى بقية أسماء الله الحسنى على الإنسان والكون... تجليات تظهر من خلالها الرعاية الربانية الكاملة.

وثانيهما: أن دور الإنسان في التاريخ الإنساني؛ بل والكوني قد أصبح أكثر وضوحاً وألقاً وروعة... إن الإنسان هو "أنا" التي حملتْ الأمانة الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢).

وليست الأمانة في المنظور النورسي هي "الإرادة أو التكاليف" -كما كان التفسير الشائع- وإنما الأمانة هنا أعظم من ذلك كله... إنها إظهار بعض تجليات الأسماء الحسنى المطلقة في عالم الإنسان النسبي؛ حتى يبصر الأحياءُ -إبصارَ معاينةٍ وتعقلٍ- بعضَ ومضات الفاعلية المطلقة لأسماء الله الحسنى في مرآة هذا الإنسان المحدود النسبي... فقدرة الله المطلقة تُري بعض ومضاتها في قدرة الإنسان النسبية المحدودة، وعلم الله المطلق تُري بعض آثاره في علم الإنسان النسبي المحدود، وكذلك الرحمة والعدل والحلم والكرم إلى آخره.

وهكذا فإن صفات الله ﷻ -كالعلم والقدرة- وأسماءه الحسنى -كالحكيم والرحيم-، لأنها مطلقة ولا حدود لها ومحيطة بكل شيء، لا شريك لها ولا ند، لا يمكن الإحاطة بها أو تقييدها بشيء، فلا تُعرف ماهيتها، ولا يشعر بها، لذا لا بد من وضع حد فرضي وخيالي لتلك الصفات والأسماء المطلقة، ليكون وسيلة لفهمها؛ حيث لا حدود ولا نهاية حقيقية لها، وهذا ما تفعله "الأنانية" أي ما يقوم به "أنا" إذ يَتصور في نفسه ربوبية موهومة، ومالكية مفترضة، وقدرة وعلماً.[1] وهكذا...

ويقول النورسي أيضاً: فقد اندرجت في "أنا" آلافُ الأحوال والصفات

(١) الكلمات، بديع الزمان النُورْسي ص٦٣٦.

والمشاعر المنطويةِ على آلاف الأسرار المغلقة التي تستطيع أن تَدل وتُبيّن -إلى حدٍ ما- الصفاتِ الإلهية وشؤونَها الحكيمة كلها.

أي إن "أنا" لا يحمل في ذاته معنى؛ بل يدل على معنى في غيره، كالمرآة العاكسة والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف.[1]

لقد عمّق الفقهُ النورسي دورَ الإنسان في صناعة الحضارة، وأبرزَ حقيقةَ الصلة بين الله والإنسان، وقد أصبح هناك معنى أكثر ألقاً لمعنى الاستخلاف، وكذلك لمعنى الإنسان الرباني الموصول بالله، ولمعنى تفضيل الله لآدم على الملائكة، بل إننا نكاد بالمنظور النورسي نفهم إضافات جديدة لمعنى تعليم الله آدم الأسماء كلها؛ فليست هذه الأسماء مجرد مفردات تتصل بعالم الأشياء أو عالم القيم والمعنويات. إنها قد تتصل ببعض القدرات والمواهب الفطرية التي تدفع الإنسان لفتح مغاليق السنن الكونية والاجتماعية وفقهها، واستخدامها لتحقيق وظيفة الاستخلاف، ولإظهار بعض آثار تجليات الأسماء الحسنى التي لا تُطلَق في حدودها النسبية على أحد إلا على هذا الإنسان... الإنسان المستخلف... الإنسان المرآة... الإنسان الذي يسمح الله له وحده بأن يَحمل بعضَ أسمائه -مع محدوديته ونسبيته- فيكون -أحيانا- الإنسانَ اللطيف الخبير الحكيم الكريم الرحيم... ويكون -في أحيان أخرى- الإنسانَ الجبار المتكبر العظيم... إنها مَكرُمة كبيرة، وإنها لأمانة عظيمة... لكن هل يؤدي الإنسانُ (المرآة) حقَّها، أم يخون الأمانة... إنه كان ظلوما جهولا.

مدرسة قرآنية تواجه الغرب المادية

عندما تصفو المشارب ويستقيم المنهج وتتحد الغايات، يلتقي الفكر، حتى ولو وقع خلاف في بعض الاجتهادات الجزئية...

والتقارب الفكري الكبير الذي نلحظه بين العلامة محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨م) والعلامة بديع الزمان سعيد النورسي (١٨٧٦-١٩٦٠م) هو تقارب من هذا القبيل.

(١) المصدر السابق ص٦٣٧.

لقد كان الرجلان ينتميان إلى مدرسة القرآن، ويتتلمذان عليها بصفاء وإيمان وطلب صادق للحق، كما أنهما يعيشان قلقا واحدا هو تخلف المسلمين العملي في مواجهة تقدم الحضارة الأوربية القويّ... كما كانا يسعيان إلى غاية واحدة هي بعث المسلمين بعثا قرآنيا يستوعب حضارة العصر؛ لكنه لا يحمل أوزارها وأوساخها وجراثيمها وتضحيتها بالدين والأخلاق.

إن العلامة "سعيد النورسي" يكاد يعلن في كل صفحة من صفحات رسائل النور أنه "تلميذ للقرآن" وأن "أستاذية القرآن" هي التي ألهمته كل رسائل النور، وجعلته يبصر الكون والتاريخ والحياة بعين تستوعب الأشياء، لكنها تنفذ إلى ما وراء الأشياء وتفسر "حركة التاريخ" تفسيراً جامعاً للعوامل المنظورة المادية والعوامل المعنوية غير المنظورة.

يقول النورسي: "القرآن الكريم مرشدنا وأستاذنا وإمامنا ودليلنا في كل أعمالنا".[1]

ويقول: "إن القرآن الكريم "المقروء" هو أعظم تفسير وأسماه، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع؛ الذي هو قرآن آخر عظيم "منظور". نعم، إن ذلك الفرقان العظيم الحكيم هو الذي يرشد الجن والإنس إلى الآيات الكونية التي سطرها قلم القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور، وهو الذي ينظر إلى الموجودات التي كل منها حرف ذو مغزى بالمعنى الحرفي... أي ينظر إليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل".[2]

ولئن كانت كلمات النورسي التي اقتبسناها سابقاً تؤكد لنا أن النورسي "إنسان قرآني" فتح الله عليه ببصيرة قرآنية سامية، وأنه نموذج للمسلم العصري الذي رباه القرآن فأصبح من الصفوة الذين اقتدوا برسول الله -عليه الصلاة والسلام- الذي كان قرآناً يمشي على الأرض.. ومع ذلك -بل لأجل ذلك- فهموا طبيعة

---

(١) انظر: المكتوبات، بديع الزمان النورسي، المسألة السابعة من المكتوب الثامن والعشرين ص٤٧٦، دار سوزلر ط٢، ١٤١٣هـ، القاهرة.

(٢) الكلمات، بديع الزمان النُورْسي ص١٤٣.

العصر ومدنيته العوراء المادية فهماً موضوعياً... فاعترفوا بحسناتها... لكنهم حذروا الإنسانية -ولاسيما المسلمين- من بنيتها الإلحادية ومنهجها الدنيوي العنصري اللاأخلاقي.

ولئن كان النورسي هو هذا الرجل القرآني فإن العلامة محمد إقبال كان -كذلك- ينتمي إلى هذه المدرسة القرآنية نفسها، ويبصر -كذلك- بالبصيرة القرآنية كلَّ حقائق الحياة والكون، ولا تخدعه "المادية الأوربية العوراء"، مع أنه كان يعرف حسنات أوروبا... وقد عاش في أعماقها ونال شهاداته وشطراً كبيراً من ثقافاته من جامعاتها...

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي -رحمه الله رحمة واسعة- في حديثه عن أستاذه محمد إقبال:

أما الأستاذ الثاني الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته فهو أستاذ كريم، لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين، إنه القرآن الكريم الذي أثر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية، لقد أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبالَ رجل حديث عهد بالإسلام؛ فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار. وقد وصل هذا المهتدي إليه بشق النفس، وعلى جسر من الجهاد والتعب. وكان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالَم الجديد من المعاني والحقائق أعظمَ من سرور "كولمبس" لمّا اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه... أما الذين ولدوا ونشأوا في هذا العالم الجديد فكانوا ينظرون إلى كولمبس وأصحابه باستغراب ودهشة، ولا يفهمون معنى لما كان يخامره من سرور وفرح، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئا جديداً.

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن تختلف عن قراءة الناس... ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن، واستطعامه إياه.

ولم يزل "محمد إقبال" إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن، ويطير في أجوائه؛ يجوب في آفاقه فيخرج بعلم جديد، وإيمان جديد، وإشراق جديد،

وقوة جديدة, وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاق فكره ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد، والعلم الأبدي وأساس السعادة، ومفتاح الأقفال المعقدة، وجواب الأسئلة المحيرة، وأنه دستور الحياة ونبراس الظلمات. ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر في هذا القرآن العجيب وفهمه ودراسته، والاهتداء به في مشكلات العصر، واستفتائه في أزمات المدنية، وتحكيمه في الحياة والحكم، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب؛ الذي يرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين...

يقول في مقطوعة شعرية له: إنك -أيها المسلم- لا تزال أسيراً للمتزعمين للدين والمحتكرين للعلم، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً. إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فتُقرأ عليك سورة "يس" لتموت بسهولة... فوا عجبا! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة يتلى الآن لتموت براحة وسهولة.[1]

وكما نرى فإننا -من خلال هذه النصوص- نشعر أننا أمام نصوص تختلف في الألفاظ؛ لكن مضامينها واحدة ورؤيتها واحدة؛ ذلك لأن إقبال والنورسي معا قد صفت مشاربهما، واستقام منهجهما، واتحدت غاياتهما الربانية والإنسانية؛ القائمة على التكامل بين الوحي والعقل والآخرة والدنيا؛ لا على التصادم والرؤية الإلحادية المادية العوراء... وهما من خلال هذا المنهج -الذي لن تسعد البشرية إلا به، ولن يستأنف المسلمون قيادتهم للحضارة إلا عندما ينطلقون من قواعده- قد استطاعا تقديم أصول وكليات لتحقيق النهضة الإسلامية التي تستفيد من كل ما أفرزته الحضارة الأوربية من إيجابيات علمية... لكنها تضم إلى ذلك المنهجية الإنسانية الموصولة بالله وبرسالة الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ، لتحقق إنسانية الإنسان التي ترتفع فوق مستوى الذوبان في المادية والشيئية والغرائزية.

وانطلاقاً من هذا المنظور القرآني لم تخدعهما المدنية الأوروبية، ولم

---

(١) روائع إقبال، أبو الحسن علي الندوي، المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء لكهنؤ، الهند، ص٥١-٥٣ ط٤/ ١٤٠١هـ.

ينسحقا أمام مقولاتها وفلسفاتها، ولم يفقدا موازين العدل وموضوعية الرؤية؛ أمام أضوائها الخادعة التي سقط تحت إغراءاتها الأخسرون أعمالاً: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾(الكهف:١٠٤).

كان إقبال بعد أن عاش في أوربا وسَبَر عن كثب غورَ مدنيتها يسميها بالمدنية الفاجرة الناعمةِ الملمسِ التي تَقتل الناس وهي تظهر هيامها بهم... وكان يحذّر المسلمين من أن يقعوا في حبائل المدنية الأوربية منبهرين بتقدمها العلمي والتكنولوجي، ناسين مخططها الجهنمي "العالمي" لإبادة غيرها بطريقة عنصرية.

لقد أبصر "إقبال" عن خبرة عميقة ومعايشة دقيقة جوانب الضعف الأساسية في مركب الحضارة الأوربية، والفساد الذي عجنت به طينتها، لاتجاهها المادي، وثورة أصحابها على الديانات والقيم الخلقية والروحية في عصر النهضة، وقد عزا فسادَ القلب والفكر الذي اتسمت به هذه الحضارة إلى أن روح هذه المدنية ملوثة غير عفيفة، وقد جردها تلوث الروح من الضمير الطاهر ومن الفكر السامي والذوق السليم، وقد تسلط عليها -رغم المدنية الباذخة، والحكومات القومية، والتجارة الرابحة- القلق الدائم.

كما نوه بأساسِ حضارتها اللاديني، وبأنها عجنت مع الثورة على الدين، فهي في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق، وبالتالي فهي عاكفة على عبادة آلهة المادة، وتؤسس في كل يوم لها معبداً جديداً.[1]

إن شعار هذه الحضارة الغارة على الإنسانية، والفتك بأفراد النوع البشري، وإن شغلها الدائم التجارة. إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء البرىء النزيه، والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة.[2]

ويقول إقبال في شعره "إن شعار الحضارة الحديثة الفتك بالإنسان الذي تقوم عليه تجارتها، وتنفق سلعتها، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء، ذلك الدهاء الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم...

(١) المصدر السابق ص٨٢.

(٢) المصدر السابق ص٨٣.

إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام، ما لم ينقلب هذا النظام رأساً على عقب.[1]

وفي مواجهة مشروعات هذه الحضارة الإبادية العولمية كان "إقبال" يحث المسلمين على أن يتمسكوا بذاتيتهم الإسلامية، وقد أدار كثيراً من شعره وفلسفته حول "الذات المسلمة"، وإذا كان واجبا على المسلمين -كما يرى إقبال- أن يدرسوا العلوم الحديثة، فمن الأوجب عليهم -أيضاً- أن يقرأوا القرآن كأنه أنزل عليهم -كما كان والد إقبال ينصحه-، وأن يمارسوا التعاليم الإسلامية في حياتهم.

وبينما رفض إقبال منصب نائب الملك في إحدى مستعمرات بريطانيا؛ حتى لا يعرض امرأته للسفور والاختلاط، فكذلك كان إقبال -باستعلاء المؤمن- يأسف لأنه أضاع بعض سنوات عمره في الغرب (الغرب الذي يعبده بعض المسلمين).. وكان بثقة المسلم يقول: إن أوروبا تنتحر، والروح تموت عطشا في سرابها الخادع... إنها حضارة شابة بحداثة سنها، والحيويةِ الكامنة فيها، ولكنها تعاني من سكرات الموت، وإنه إن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها، ولا غرابة في ذلك، فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار، ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود، إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار.

إن الفكر المارد الذي أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدهم، إن العصر يتمخض عن عالم جديد، وإن العالم القديم الذي حوله الغربيون مكاناً للقمار -يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الأمم- يلفظ أنفاسه الأخيرة.[2]

إن عقلها الجريء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة... إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون -حتى في ابتكاراتهم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص٨٣-٨٤.

وثوراتهم- عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة.

إن تجارتها قمار، يربح فيه واحد، ويخسر ملايين، إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومات التي تتبجح بها أوربا مظاهر جوفاء، ليس وراءها حقيقة، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون دروس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية... إن البطالة والعري وشرب الخمر والفقر هي فتوح المدنية الإفرنجية.[1]

إننا نشعر ونحن نقرأ كلمات إقبال والنورسي وكأنهما يتحدثان عن العولمة الأوربية أو الأمريكية المعاصرة التي يخدعون بها الشعوب، بينما يعترف عقلاؤها ومفكروها بأنها تخطيط جهنمي لإبادة أربعة أخماس العالم...

ونحن قد نشعر أكثر بحقيقة هذه الحضارة عندما نقرأ أفكارهما بوعي... ثم نقرأ في الوقت نفسه بنود "اتفاقية الجات" المفروضة قهراً على العالم ليزداد الغني غنى ويزداد الفقير -وهو معظم الإنسانية- فقراً... فيتأكد لدينا صدق النورسي وإقبال، وأن شعر إقبال كان شعراً إسلامياً يستشرف المستقبل، ويبصر -من خلال المعايشة والرؤية القرآنية- أعماق هذه الحضارة، وحقيقة مخططاتها تجاه الإنسانية!!.. وكذلك كان فكر النورسي ممثلاً في موسوعته رسائل النور!!.

وليس عجيباً -مع استقامة المنهج وصفو المشرب- أن نجد اتفاقاً شبه كامل بين رؤيتي محمد إقبال وسعيد النورسي... حتى في أسلوب النقمة والكراهية لفلسفة أوروبا ومخططاتها الجوهرية التي لا تريد مدنية أوروبا أن تحيد عنها، مع كل ما عانته من حروب عالمية وأمراض اجتماعية وأخلاقية مستعصية!!.

بيد أننا -مع هذا القاسم المشترك بين إقبال والنورسي- نجد النُّوْرْسي أكثر وضوحاً في إنصاف الجوانب الإيجابية للحضارة الأوروبية... وإشادة بالجوانب العلمية والروحية القديمة التي كانت قد وفدت إلى أوروبا مع مسيحية (عيسى عليه السلام)!!

إن النورسي لا ينكر إيجابياتها الواضحة... لكنه -كذلك- لا يعترف لها

(١) المصدر السابق ص٨٤.

بأنها وحدها صاحبة الحضارة، وأن الآخرين لم يقدموا شيئا، كما أنه لا يتجاهل مخازيها وماديتها ودنيويتها المهلكة... بالوضوح نفسه.

ولهذا نجد النورسي يزن الحضارة الأوربية بموازيين موضوعية عادلة، فيقدر لها إبداعها العقلي، وصناعاتها، ووسائل اتصالها؛ التي قرَّبت المسافات، وجعلت الكرة الأرضية قرية واحدة، لكنه في الوقت نفسه يرفض أوروبا المتعفنة بالفلسفة والوثنية، الغارقة في الانحلال والحيوانية...

يقول النورسي: "إن أوروبا اثنتان:

إحداهما: هي أوروبا النافعة للبشرية، بما استفادت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية، وبما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف... فلا أخاطب في هذه المحاورة هذا القسم من أوروبا وإنما أخاطب أوروبا الثانية، تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل، فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة".[1]

وبالوضوح نفسه، والنقمة نفسها، والتحذير نفسه... راح النُّوْرْسي يخاطب الحضـارة الأوروبية ممثلة في هذا الشـق اللاديني، اللاأخلاقي قائلا لها وللمفتونين بها:

"يا أوروبا الثانية! اعلمي جيداً أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفيهة، ثم تدَّعين أن سعادة الإنسان بهما، ألا شُلّت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالاً عليك، وستكون... أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود!! تُرى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تَمَلُّكه ثروة طائلة، وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه، وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد"؟![2]

---

(١) اللمعات، بديع الزمان النورسي ص١٧٦، ١٧٧، ط٢، ١٤١٣هـ.

(٢) المصدر السابق ص١٧٧.

لقد طغت أوروبا الثانية -أو كادت- على أوروبا الأولى، وأسوأ ما في الأمر أن العالم الإسلامي يقتبس أكثر ما يقتبس من أوروبا الثانية، وتدفعه أوروبا نفسها بعيداً عن طريق أوروبا الأولى، فتمنع عنه علمها الإبداعي الدقيق، وتغدق على أبنائه أوراقاً تسمى الشهادات الجامعية!!.

أما إذا وجدتْ من أحدهم إصراراً على العلم الحقيقي، وقدرة على الإبداع، فإنها تسعى إلى أن تحرم منه حضارته فتغريه بالمال والنساء حتى يقبل جنسيتها ويخدم حضارتها...!!

إنها تمنع خيرها الذي لا شك فيه، وتنشر بكل الوسائل شرها الذي لا خير فيه...!!

إن النورسي يعترف بهذا الجانب الإيجابي (أوروبا الأولى) فيقول: "إن البشرية التي أخذت تصحو وتستيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة، أدركت كنه الإنسانية وماهيتها، وتيقنت أنه لا يمكن أن تعيش هملاً بغير دين. لقد تيقظ الإنسان في عصرنا هذا، بفضل العلوم والفنون ونذر الحروب والأحداث المذهلة، وشعر بقيمة جوهر الإنسانية واستعدادها الجامع".[1]

وعندما يتكلم النورسي بإطلاقٍ عن المدنية فإنه يقصد المدنية بمعناها الصحيح (أوروبا الأولى)... أي أوروبا بمحاسنها وجوانبها النافعة للبشرية، وليس ذنوبها وسيئاتها، كما ظن الحمقى من الناس أن تلك السيئات محاسن فقلدوها وخربوا الديار، وقدموا الدين رشوة للحصول على الدنيا فما حصلوا عليها ولا حصلوا على شيء!![2]

إن أوروبا الثانية التي تكاد تقضي على أوروبا الأولى؛ تحمل في أحشائها جراثيم الظلم... وجراثيم الدمار والفناء لنفسها وللبشرية... إنها تأسست على خمسة أسس سلبية مدمرة:

---

(١) صيقل الإسلام، بديع الزمان النورسي ص٤٩٤، دار سوزلر ط٣، ١٩٩٩م، القاهرة.

(٢) المصدر السابق ص٥٠١.

فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة.

وهدفها وقصدها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية.

ودستورها في الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة.

ورابطتها الأساسية بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين، وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المُشاهَد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك.

وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، وإشباع الشهوات والرغبات، وشأنُ الأهواء والنوازع -دائماً- مسخُ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخاً معنوياً.[1]

ومن خلال هذه الأسس الخمسة المدمرة السلبية التي تقوم عليها المدنية الأوروبية ينتهي النورسي إلى كشف نتائج المشروع الحضاري (العولمي) الغربي تجاه الإنسانية، فيصل إلى النتائج نفسها التي انتهى إليها "إقبال"، وهي إبادة أربعة أخماس البشرية، ومن عجب أنها النتائج التي ينتهي إليها الفكر الاجتماعي والاقتصادي الحديث... يقول النورسي:

إن معظم هؤلاء المدنيين، لو قلبتَ باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والذئب والخنزير.[2]

"ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين في المائة من البشرية إلى أحضان الشقاء، وأخرجت عشرة بالمائة منها إلى سعادة مموهة زائفة،

---

(١) الكلمات، بديع الزمان النُورْسي ص٨٥٥، ؛ وانظر: صيقل الإسلام، بديع الزمان النورسي ص٣٥٧. (وفي المقابل يرى النورسي أن أسس المدنية الإسلامية هي خمس أسس: الحق بدل القوة، والفضيلة بدل المنفعة، والتعاون بدل الخصام، والهدى بدل الأهواء، والدين والإيمان بدل العنصرية).

(٢) الكلمات، بديع الزمان النورسي ص٨٥٥.

وظلت العشرة الباقية حيارى بين هؤلاء وأولئك، علماً بأن السعادة تكون سعادة؛ عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية، بيد أن سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل من الناس".[1]

وإذا قارنا هذا الكلام بما انتهى إليه الباحثان الألمانيان (مؤلفا كتاب فخ العولمة)؛ اللذان ينتهيان إلى النتيجة نفسها، مع أنهما مفكران اقتصاديان معاصران ينطلقان من رؤية ليبرالية (اقتصادية بحتة) لكنها موضوعية إنسانية!!... إذا قارنا كلام إقبال والنورسي السابق، بما انتهى إليه هذان الباحثان (مارتين وشومان)، أدركنا كيف أن المفكرَين المسلمين الكبيرين ينطلقان من رؤية قرآنية موضوعية تلتقي مع رؤية العقل السليم العلمية الموضوعية، وأدركنا أيضاً كيف أن الله يمنح المفكرين المسلمين المخلصين إلهاماً يستشرف الغيب، ويستقرئ المستقبل، حتى ولو لم تتوافر لديهم وسائل البحث العلمي وأدواته الكاملة، مادامت رؤيتهم قرآنية واعية...

لننظر، ولنقارن ما يقوله "مارتين وشومان" بما انتهى إليه النورسي وإقبال.. يقول مؤلفا كتاب "فخ العولمة" المترجم إلى العربية في أكتوبر ١٩٩٨م (جمادى الآخرة ١٤١٩هـ):[2]

"لم يعد (أي في ظل العولمة الحديثة) مجتمع الثلثين (الأثرياء، والثلث الفقير)؛ الذي كان الأوروبيون يخافون منه في الثمانينات هو الذي يقرر توزيع الثروة والمكانة الاجتماعية؛ بل سيحددها في المستقبل نموذج العولمة الجديد القائم على صيغة ٢٠٪ (يعملون) و٨٠٪ (عاطلون عن العمل). لقد لاح في الأفق مجتمع الخمس، هذا المجمع الذي سيتعين في ظله تهدئة خواطر العاطلين فيه عن العمل بما يسمونه (Tittytainment) (الصداقة أو المعونة الاجتماعية).

---

(١) صيقل الإسلام، بديع الزمان النورسي ص٣٥٧؛ الكلمات، بديع الزمان النورسي ص٨٥٦، ويقول النورسي وكأنه عالم اقتصادي يعاصر عولمة أمريكا الكذوب: "وتتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة". (الكلمات ص٨٥٦).

(٢) فخ العولمة؛ الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، (ضمن سلسلة عالم المعرفة) عدد ٢٣٨ ص٢٨، نشر المجلس الوطني للثقافة، الكويت. مراجعة وتقديم: د.رامز زكي، ترجمة د.عدنان عباس علي.

ويقول المؤلفان أيضاً: "إن ٢٠٪ (عشرين بالمائة) من السكان العاملين ستكفي في القرن القادم للحفاظ على نشاط الاقتصاد الدولي (...) ولكن ماذا عن الآخرين؟ ماذا عن الثمانين بالمائة العاطلين وإن كانوا يرغبون بالعمل؟ إن الثمانين بالمائة من الطبقة السفلى ستواجه بالتأكيد؛ كما يرى الكاتب الأمريكي جريمي ريفكن (Jeremy Refkin) مؤلف كتاب "نهاية العالم" مشاكل عظيمة، ويعزز رئيس مؤسسة "سان" هذا الرأي مستشهداً بمدير شركته سكوت مك نيلي إذ يقول: إن المسألة ستكون في المستقبل هي: "إما أن تأكل أو تؤكل (To have lunch, or To be lunch)."[1]

ولهذه النتيجة المؤسفة كل الأسف يرى "مارتين" و"شومان" أن نموذج الحضارة الذي ابتكره الغرب لم يعد صالحاً لبناء المستقبل.[2] (وكأنهما كما نرى يتكلمان بلغة إقبال والنورسي نفسها!!) وهما يعتقدان أن الدعاية المفرطة لهذا النموذج كانت جزءاً من الحرب الباردة، ولهذا فإن هذا النموذج الأوروبي الحضاري يجب أن يوضع- بتعبيرهما- في متحف الأسلحة القديمة!! وتسود الآن حسب اعتقاد المؤلفين عملية تحول تاريخي بأبعاد عالمية واضحة ينعدم فيها تحت ضغط النموذج الغربي التقدم والرخاء، ويسود التدهور الاقتصادي والتدمير البيئي والانحطاط الثقافي، في ضوء حضارة التنميط[3]... حضارة أوروبا وأمريكا..!!

وأعتقد أنه من حقنا بعد هذه النصوص التي أوردناها للمفكرَين الألمانيين الاقتصاديين مارتين وشومان والتي عرفها العالم العربي والإسلامي -وعرف كثيراً من أمثالها من الدراسات الجادة حول تأثير الهيمنة العولمية-... من حقنا عندما نجد تطابقها الكبير في مجمل الرؤى والحقائق والنتائج مع ما ذكره وانتهى إليه إقبال والنورسي المفكران المسلمان... منذ نصف قرن... أي مع تفاوت الزمان، وتفاوت الثقافة والمنطلقات والمكان.. من حقنا أن نستنتج

(١) فخ العولمة ص٢٦.

(٢) المصدر السابق ص١٢ (المقدمة).

(٣) المصدر السابق ص١٢.

عدداً من الحقائق الأساسية، على رأسها المصداقية الكاملة والأحقية المطلقة للمنظور القرآني الذي انطلق منه إقبال والنورسي... فهو منظور "علم اليقين" وهو منظور "دراسة الإيمان الصحيح".

ومن هذه الحقائق -أيضاً- أصالة المفكرين المسلمين الكبيرين وسلامة منهجهما وموضوعيتهما وتجردهما للحق.. فليس كل من يتعامل مع الحق قادراً على فهم دلالاته واستخلاص دروسه، وعلى التعبير عنه بطريقة علمية، وتوضيح الطرق الموصلة إليه والآليات المحققة له...

لكن إقبال والنورسي نجحا في تقديم الكثير في هذا الطريق!!

وأخيراً فإن من الحقائق المستخلصة: التطابق كما نرى في الآراء السابقة بين معطيات الوحي الصحيح، واستنتاجات العقل الصحيح.. عندما تصفو المشارب ويستقيم المنهج وتتحد الغايات!!.

المستقبل للإسلام وحضارته الإيمانية

ومع ذلك فإن الصراع بين المدنية الغربية المادية ذات البنية الملحدة، وبين حضارة الإسلام ذات البنية الإيمانية، لابد أن ينتهي بالنصر للإيمان والحق. إذا كان مقدراً في علم الله أن يبقى للبشرية بعض الوجود، فلا وجود إلا بالروح والضمير والعقل والمادة معاً، ولا إنسانية إلا بالوحي والعقل... والنبوة والعلم، وبما أن المدنية الأوروبية والأمريكية قد مزقت هذا النسيج المتكامل... واكتفت بالعقل والمادة.. فإنها لم تعد قادرة على الاستمرار في القيادة مهما كانت كثافة السحب التي تحجب الحقائق، والقيادةُ بالتالي لابد أن تعود للإسلام وحضارته... ولابد أن يتقدم المسلمون الصادقون الصالحون لإنقاذ سفينة الإنسانية...

وفي رأي "إقبال" أن الحضارة الغربية قد أدت دورها، وشاخت وهرمت، وأينعت كالفاكهة، وحان قطافها، وأن العالم القديم الذي حوّله مقامرو الغرب إلى حانة للفساد سينتهي قريباً، وأن الإنسانية سوف تتمخض عن عالم جديد. ويعتقد "محمد إقبال" أن هذا العالم الجديد لا يُحسن تصميمَه إلا من بنى

للإنسانية البيت الحرام بالأمس في مكة مركز الأرض، وورث إبراهيمَ ومحمداً ﷺ في قيادة العالم وإرشاده. ولذلك يهيب "محمد إقبال" بهذا المسلم النائم، أن يقوم ويمسح النوم عن عينيه، فقد ظهر الفساد في البر والبحر، وعاث الأوروبيون في الأرض، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها، وخربوا العالم وملأوه ظلماً وظلمات، وشروراً وويلات، وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً، وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولكن الأوروبيين حوّلوها إلى خمارة، وبيتِ فسق ودعارة، ومكانِ نهب وإغارة، وقد آن لباني البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوروبيون، ويعيد هذا البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، ويبني العالم من جديد.[1]

أما النورسي فيحدّثنا الحديث نفسه تقريباً.. ويقول: "إنه بطغيان ذنوب المدنية على محاسنها، ورجحان كفة سيئاتها على حسناتها، تلقت البشرية صفعتين قويتين بحربين عالميتين، فأتتا على تلك المدنية الآثمة، وقاءت دماءً لطخت وجه الأرض برمتها، وسوف تغلب -بإذن الله- محاسنُ المدنية بفضل قوة الإسلام التي ستسود في المستقبل، وتطهّر وجهَ الأرض من الأدناس، وتحقق أيضاً سلاماً عاماً للبشرية قاطبة..

نعم، لما كانت مدنية أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى؛ بل على الهوس والهوى وعلى الحسد والتحكم، تغلبت سيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن، وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية. وهذا دليل قوي ومؤثر على قرب انهيارها، وسببٌ مهم لحاجة العالم إلى مدنية آسيا -الإسلامية- التي ستكون الغلبة لها عن قريب!![2]

إنه استشراف ورؤية مستقبلية أخرى، يلتقي فيها إقبال والنورسي، مع ما يقوله مؤلفا كتاب "فخ العولمة"!!.

---

(١) روائع إقبال، أبو الحسن علي الندوي ص١٣٠-١٣١ بتصرف. (وهذا لا يعني الاستغناء عن إبداعات العقل الأوربي التي أنجزتها أوربا النافعة (الأولى) مع تسخيرها لخدمة الحق ونشر الإيمان والرحمة والتسامح).

(٢) صيقل الإسلام، بديع الزمان النورسي ص٥٠١.

وقد ظهرت الصحوة الإسلامية في العالم بعد عديد من النكبات والهزائم والاختبارات، وقد كادت الصحوة تمضي إلى غايتها.. لكن الأشواك توضع في طريقها، ويُدفع إلى الوقوف ضدها كثيرٌ من المنافقين المسلمين... وبدلاً من أن يرشدوها للصواب. يدفعها بعضهم إلى الخطأ... ويبنون على الخطأ الفردي والتطرف الشخصي سياسةَ مواجهة عامة للظاهرة.. ومع ذلك فإنهم -كما أشار النورسي- لم يكسبوا الدنيا حين باعوا الآخرة، ولم يرض عنهم الأعداء حين باعوا الإخوان والأصدقاء.

وفي كل يوم يصفعهم الأعداء -بأمر الله- صفعات قوية من الذلة والخيانة ونكث العهود... تحقيقاً لقوانين القرآن التي لا تتخلف، قال تعالى ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾(البقرة:١٢٠). وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(المجادلة:١٤-١٥).

لكنها مرحلة من مراحل الهوان سوف تنتهي بإذن الله، وسوف تعقُبها إفاقة إنسانية عامة تبحث عن الحق، وتسعى إليه بعد أن يصل الأمر إلى مداه...!!.

وإن لدى الإسلام مؤهلاتِ النصر والتفوق والسيادة... لديه الحقيقة الإسلامية أستاذُ جميع الكمالات... ولديه حاجة البشرية الملحة إلى هذا الأستاذ الحقيقي والقائدِ الحقيقي للمدنية الصحيحة اللائقة بالإنسان.

ولديه الحرية الممزوجة بالشرعية التي تمزق الاستبداد وتقضي على الفوضى اللاإنسانية، ولديه الشهامة الإيمانية الممزوجة بالرحمة والصراحة، ولديه العزة الإسلامية التي تعلن إعلان كلمة الله... بالوسائل المادية والمعنوية معاً.

وكما صَدَقَت توقعات النورسي في الماضي القريب، فسوف تَصدق -بإذن الله- توقعاتُه بانتصار الإسلام في المستقبل القريب... والبعيد أيضاً..!!. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الأسباب ودورها في الحركة التاريخية

يؤمن العقل المسلم بالأسباب والسنن الجارية، انطلاقا من إيمانه بالقرآن الذي يوجّه إلى الفقه بالأسباب والأخذ بها والاعتماد على تكرارها واستمرارها... قال الله تعالى: ﴿...فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾(فاطر:٤٣)، لكن العقل المسلم -في الوقت نفسه- يؤمن بأن هذه الأسباب محكومة بهيمنة الله القادرِ على إبطالها وإخلافها، وتَعُدُّ معجزاتِ الأنبياء كلها، وكراماتِ الأولياء الصادقين كلها ضربا من الاستعلاء على الأسباب، والتلقي المباشر من الله، بأمر الذي يقول للشيء كن فيكون... هكذا أبطل الله الأسباب مع إبراهيم في النار عندما قال الله لها: ﴿نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾(الأنبياء:٦٩) ومع موسى في العصا، ومع عيسى في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، بإذن الله، ومع يونس عندما انقطعت به كل الأسباب المادية وصار لقمة في بطن الحوت فلم يجد إلا الاتصال المباشر بخالق الأسباب قائلا: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنبياء:٨٧).

كانت مشكلة الأسباب التي تعود إلى "قوانين الحركة الداخلية" للفعل من أكبر عوامل انحراف الفكر البشري مع بزوغ فجر النهضة الصناعية في أوربا؛ حتى إنها كانت تُعد عند بعضهم بدايةَ عصر الإلحاد، فلقد ظن بعضهم أن اكتشاف "قوانين الحركة الداخلية" ومعرفة أسرارها وكيفية التعامل معها تغني عن اللجوء إلى الإيمان بفاعل غيبي غير منظور، وهكذا ذهب الماديون إلى إعطاء القانون أو السبب قدرة الفعل الذاتي، مع أن القانون لابد أن يكون وراءه مقنّن، كما أن السبب لابد أن يكون وراءه مسبّب!!

وهذه القوانين لا تسمح -عقلا- بقطع نسبة الحادثة إلى إرادة الله الكلية واختيارِ الله المطلق وحاكميته النافذة التي تمثلها سننه الجارية في الوجود... فإن أصحاب هذا الفهم العابث؛ يشبهون هؤلاء الذين يُحيلون الانتصار الذي تحرزه فرقة في الحرب إلى طبيعة نظام الجندية وقانونِ العسكرية، ويتجاهلون دور

العقل الفاعل الذي يتمثل في قيادة الجيش وفي الجنود الذين حاربوا.[1]

والحق أن الفكر الإسلامي كان واعياً كل الوعي ببطلان هذا الزعم منذ الصدام بين الحضارتين: الإسلامية والأوربية، وعبورِ فترة الانهزام المفاجئ. والمفكرون الإسلاميون يدحضون هذه المقولة التي اتكأ عليها الماديون بعامة والماركسيون بخاصة.

وكانت لجهود جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد إقبال، ومحمد فريد وجدي ثم وحيد الدين خان، ومحمد قطب، وسيد قطب، ومحمد الغزالي، وعشرات غيرهم من الأعلام المجاهدين.. كانت لجهودهم آثارُها الإيجابية الطيبة.

بيد أن ما يقوله النورسي يقف نمطا متميزاً غير مكرور في هذا السبيل... إنه لا يكتفي بالرد العلمي، ولا ببسط النظريات المضادة، ولا بإخراج المحترزات التي تشبه الاستثناءات التي تحبط فاعلية القانون بحد ذاته.. بل إنه ليتبع الأمور بتفصيل شديد، وبتصوير رائع لصفحة الكون، وكأنه يبصر الحركة المباشرة التفاعلية بين السماء والأرض، ويرى الصلة المباشرة بين المهيمن والأفعال.. ويرى الموظفين الذين يدبرون حركة القوانين، ويرى الحجم الحقيقي والوظيفية الحقيقية (المحدودة) للقوانين، أمام قدرة الله المطلقة.. وإنها لوظيفة أساسية ومهمة، لكنها لا تعدو أن تكون جسراً صغيراً أو حاجباً ضعيفاً أو سِتاراً رقيقاً تحركه قدرة الله.

يقول بديع الزمان: أيها الغافل الغارق في عبادة الأسباب!

اعلم أن الأسباب ليست إلا ستائر أمام تصرف القدرة الإلهية، لأن العزة والعظمة تقتضيان الحجاب، أما الفاعل الحقيقي فهو القدرة الصمدانية؛ لأن التوحيد والجلال يتطلبان هذا ويقتضيان الاستقلال.

فالأسباب إذن إنما وضعت لتَبقى عزةُ القدرة مصونة من جهة نظر العقل الظاهري؛ إذ إن لكل شيء جهتين -كوجهي المرآة-: أحدهما: جهة المُلك

(١) الكلمات، بديع الزمان النورسي ص٢٠٠ (الكلمة الرابعة عشرة).

الشبيهةُ بالوجه المطليّ الملوَّن للمرآة الذي يكون موضع الألوان والحالات المختلفة، والأخرى "الملكوت" الشبيهة بالوجه الصقيل للمرآة. ففي الوجه الظاهر -أي جهة الملك- هناك حالات منافية ظاهراً لعزة القدرة الصمدانية وكمالها، فوُضعت الأسبابُ كي تكون مرجعاً لتلك الحالات ووسائلَ لها. أما جهة الملكوت والحقيقة فكل شيء فيها شفاف وجميل وملائم لمباشرة يد القدرة لها بذاتها، وليس منافياً لعزتها، لذا فالأسباب ظاهرية بحتة، وليس لها التأثير الحقيقي في الملكوتية أو في حقيقة الأمر.[1]

وليس الأمر في الأسباب هكذا فحسب؛ بل إن هناك حكمة أخرى للأسباب الظاهرية، وهي الحيلولة دون توجيه الشكاوى الجائرة والاعتراضات الباطلة إلى العادل المطلق جل وعلا، وبالتالي فقد وضعت الأسباب لتكون هدفاً لتلك الاعتراضات وتلك الشكاوى؛ لأن التقصير صادر منها، ناشئ من افتقار قابليتها.

ولقد روي لبيان هذا السر مثال لطيف ومحاورة معنوية هي:

أن عزرائيل عليه السلام قال لرب العزة: "إن عبادك سوف يشتكون مني ويسخطون على عند أدائي لوظيفة قبض الأرواح"، فقال الله ﷻ له بلسان الحكمة: "سأضع بينك وبين عبادي ستائر المصائب والأمراض لتتوجه شكواهم إلى تلك الأسباب".

وهكذا، تأمل! كما أن الأمراض ستائر يَرجع إليها ما يُتوهم من مساوئ في الأجل، وكما أن الجمال الموجود في قبض الأرواح -وهو الحقيقة- يعود إلى وظيفة عزرائيل عليه السلام، فإن عزرائيل عليه السلام هو الآخر ستار لأداء تلك الوظيفة وحجاب للقدرة الإلهية، إذ أصبح مرجعاً لحالات تبدو -ظاهراً- أنها غير ذاتِ رحمة ولا تليق بكمال القدرة الربانية.[2]

أيّ تصور رائع هذا؟ وأي شفافية وجدانية وعقلية تقف وراء هذا الفقه العالمي؟!!

---

(١) المصدر السابق ص٣٢٦-٣٢٧.

(٢) المصدر السابق ص٣٢٧.

لقد قدَّم بديع الزمان معنى جديداً للأسباب ووظيفة لم يكن أحد قد التفت إليها، فلم يكن يدور بخلد أحد أن هؤلاء الوسطاء من ملائكة ومن أسباب، إنما جئ بهم ليتحملوا سخافات البشر، ويكونوا أهدافاً تُرمى، وقد ينال منها، وقد تؤثر، وقد لا تؤثر؛ فليست أحكامها قاطعة لا تتخلف، أما إرادة الله فلا بد من أن تنفذ فوراً إذا اتجهت لشيء؛ لأنها ليست قابلة للتخلف، وليس فوقها شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(يس:٨٢-٨٣).

والحق أن هذا البيان النورسي الرفيع قد نجح في أن يبطل كل الحجج التي تعتمد عليها المادية في تأليهها للأسباب، ونشرها لعقيدة عبادة المادة والكفر بالله بين الناس... فلا قانون -إذن- إلا وهو جزء من حكمة الله، ويستطيع الله أن يبطله، كما أبطله في المعجزات والخوارق، ولا طريق -إذن- لفقه حركة المجتمعات وتطورات الوقائع إلا بالرباط بين النتائج الظاهرة والقوانين المفسرة، وخالق القوانين والمهيمنِ عليها ﷻ...